العدوانية وغطاء تبريرياً لها.

لم تشكل الثقافة الفلسطينية، في ظل الانطلاقة الجديدة للثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥، عنصراً طارئاً أو جديداً في العمل النضالي، بل انها اتكأت على ارث المشاركة التاريخية الفعلية. فمنذ مطلع هذا القرن التصقت، وبشكل عام في القضية الوطنية للشعب الفلسطيني، وساهمت بدورها في المواجهات اليومية للمشروع الامبريالي ــ الصهيوني على أرض فلسطين، وعبرت بأشكالها المختلفة وبدرجات متفاوتة عن أشواق الفلسطيني الى التحرر والاستقلال والخلاص الوطني. وهي في ظل الواقع الجديد الذي أفرزته الرصاصة، واصلت مهمة لم تنقطع.

تأكيداً، ان علاقة الثقافة الفلسطينية بالثورة الفلسطينية لا يمكن أن تفهم، تاريخياً، بشكل ميكانيكي يرى «الفعل الثقافي» يسير متوازياً مع «الفعل السياسي أو العسكري» أو ناجماً عنه. ومن الاستحالة الحديث عن «انطلاقة» ثقافية ترافقت مع انطلاقة الرصاصة يؤرخ لها بدءاً من اليوم ذاته. مع ذلك، وانطلاقاً من فهم جدلية العلاقة بين الثورة/ الثقافة، فاننا لا يمكن أن نقفز عن دائرة ذلك التاريخ، بما اصطخب فيها من عوامل موضوعية مسرِّعة، لنشير الى بدايات تحول في الثقافة الفلسطينية.

قد لا نجافي الحقيقة اذ نشير الى أن الذين خططوا لانطلاقة العمل الفدائي الفلسطيني واتخذوا القرار ــ الرصاصة، لم يطرحوا، آنذاك، الموضوع الثقافي قيد بحثهم، ولم يضعوا في مشروعهم حيزاً للدور الذي يمكن للثقافة أن تؤديه في العملية النضالية. ومهما تمادوا في أحلامهم الثورية المشروعة، فانهم لم يضعوا نصب أعينهم امكانية بناء مؤسسات ثقافية فاعلة. ولكن صيرورة الثورة ــ ولا نعزل فعالية الثقافة في هذه الصيرورة ــ حققت ذلك، وان داخلت التجربة بعضاً من مثالب سنعود اليها لاحقاً.

ان جدلية العلاقة بين الثورة/ الثقافة، تتبدى في أنها نتاج لشرط تاريخي ذاتي وموضوعي، نضجت فيه العوامل المفجرة لفعل الثورة، وان هيمن صوت الرصاصة لفترة طويلة على كل ما عداها. غير أن الرصاصة المتفجرة، التي اعادت بوعي الفلسطيني وقضيته الى دائرة الضوء، جاءت لتؤكد على الشخصية الوطنية الفلسطينية التي تشكل ثقافتها جزءاً أساسياً من تكوينها، حتى لو غاب القصد في التأكيد على الثقافة بذاتها.

ولم تكن الثقافة الفلسطينية مجرد استجابة، فعلاً موازياً أو ردة فعل للرصاصة، بل أنها، في تعبيراتها الأصيلة ــ وربما من حيث لا يدرون ــ كانت باعثاً للفعل ودافعاً للرصاصة ومستشرفة للأفق. ثم مدفوعة بالفعالية التي ساهمت في خلقها.

فالثقافة الأصيلة لا تغيب عن زمانها ولا تخونه، وهي وان نمت خارج الأطر التنظيمية والمؤسسية، فانها تظل مخلصة لحركة تاريخها، تستمد منها فعاليتها وتمدها بالفعالية. فلو بحثنا عن الثقافة الفلسطينية المنتجة، زمنياً، في الرقعة التاريخية التي شهدت في احدى نقاطها ميلاد الثورة الفلسطينية الجديدة، لوجدنا أن ثمة نماذج ابداعية تتميز بأصالتها وتتجاوز المألوف، قد استطاعت أن تصور الواقع وتتعداه الى استشراف الرؤية المستقبلية والاشارة الى طريق الخلاص. مثل هذه النماذج، التي صرخت من أجل قرع جدران الخزان، ورفعت السلاح في مواجهة العدو، وبشّرت بانبعاث العروس ــ البندقية[٤]، فطرحت السياسي الناضج من خلال الفني الناضج، تظل